تاريخ العراق السياسي في عهد المماليك في ضوء كتاب ستيفن هميسلي لونكريك اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث

أ.د عبدالكريم حسين الشباني
جامعة القادسية – كلية التربية

م.م صلاح هادي تومان المخاضري
المديرية العامة لتربية القادسية

nn6296567@gmail.com

تأريخ تقديم الطلب :٢٩/ ٩/ ٢٠٢٠
تأريخ قبول النشر: ١٥/ ١١/ ٢٠٢٠

الخلاصة

يعد عهد المماليك في العراق مرحلة من المراحل التي شهدت حوادث كان لها الأثر البالغ في تاريخ العراق الحديث وتناولت العديد من المصادر هذه المرحلة المهمة ولعل الكاتب البريطاني المرافق لحملة احتلال العراق ستيفن هميسلي لونكريك من المصادر المهمة التي تناولت تلك المدة الزمنية التاريخية من تاريخ العراق في كتابة أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث حيث شمل عهد المماليك بالتفصيل والدقة ابتداء من سليمان ابو ليلى وانتهاء بحكم داود باشا مضيفا الكثير من خلال الاطلاع على أدق الأمور والتفاصيل حيث اعتمد على مصادر متنوعة من رحلات ومخطوطات وتنقل الكاتب بين الإحداث بحذر شديد متوخي الدقة بالنقل و استرسل بذكر اهم شخصيات المماليك وإعمالهم والإحداث التاريخية التي مر بها العراق .

Abstract

The era of the Mamluks in Iraq is one of the stages that witnessed the events that have had a great impact in the history of modern Iraq

and dealt with many sources this important stage Perhaps the British writer accompanying the occupation of Iraq Stephn Hemsley Longrigg important sources that dealt with this historical period of the history of Iraq in writing four Centuries of the history of modern Iraq, where the Mamluk era included detail and accuracy, from Suleiman Abu Lilia to the rule of David Pasha, adding a lot through the examination of the most accurate things and details where he relied on a variety of sources of trips and manuscripts and the writer moves between the events with a very careful is meticulous in conveying and transmitting the most important figures of the Mamluks and their work and the historical events that passed through

المقدمة

مهمة المؤرخ التاريخي ليست بالمهمة اليسيرة اذ يقع على عاتقه مهمة كبيرة تاريخ امة بأسرها من إحداث سياسية واجتماعية واقتصادية وعليه التجرد والحياد حيث يمثل المحقق والقاضي في الوقت نفسه كون هذه الإحداث لا تمس شخص بعينه وإنما امة وأجيال من التاريخ والكتابة معرضة للنقد والمقارنة وكاتبنا هو ستيفن هميسلي لونكريك الضابط البريطاني وكتابة أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ،وبالرغم من

مرور قرابة القرن على كتابه الا انه مازال من المصادر التي يستقى منها تاريخ العراق الحديث لما اتسم به من النقل المتسلسل للإحداث والدقة التاريخية وسهولة اللغة ،ومن هنا جاءت هذه الدراسة لتسليط الضوء على جزء من هذا الكتاب المتعلق بتاريخ المماليك السياسي في العراق وتضمنت الدراسة ثلاث محاور تضمن الاول حياة المؤلف ولم يسعنا الحصول على الكثير سوى محطات اما المحور الثاني فتضمن التاريخ السياسي للمماليك في العراق واستعرضنا كتابات لونكريك قي كتابة اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث والمماليك وسياستهم وانجازاتهم وصراعاتهم وبصورة مقارنة مع المصادر التي كتبت عن الإحداث وبالاعتماد على رواية المؤلف أما المحور الأخير فتضمن منهجية لونكريك ونقد كتابة وطريقة كتابته.

أولا : ستيفن هميسلي لونكريك

ستيفن هميسلي لونكريك (١٨٨٣-١٩٧٩) وهو من الضباط البريطانيين الذين رافقوا الحملة البريطانية التي احتلت العراق عام ١٩١٤ وبعد تشكيل الحكومة العراقية عمل في عدة مناصب استشارية، وهو مفتش إداري يمثل سلطة الاحتلال الإنكليزي في الحكومة العراقية إبان فترة العشرينيات من القرن الماضي حيث استمر المؤلف في خدمة الجيش البريطاني حتى وصل إلى منصب (آمر لواء) في الحرب العالمية الثانية وبعد تقاعده انصرف لكتابة التاريخ فكتب عدة كتب منها الكتاب موضوع البحث اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث والعراق الحديث من ١٩٠٠ الى سنة ١٩٥٠ وله كتاب استثمار النفط في الشرق الاوسط وكتب عن تاريخ العراق في ثورة ١٤تموز ١٩٥٨ وكتب لونكريك عن تاريخ سوريا منها كتاب عن حكومة

فيصل الأول في سوريا وكتاب سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي تولى لونكريك سنة ١٩٥٠ منصب المدير الإداري لشركة نفط العراق واكتسب وفق ذلك خبرة فنية في هذا المجال.

ثانيا:تاريخ العراق السياسي في عهد المماليك في ضوء كتابات هميسلي ستيفن لونكريك

ذكر لونكريك في الفصل السابع من كتابه أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث بداية حكم المماليك حيث يشير الى ان موت احمد باشا[١] الفجائي فتح الفرصة للدولة العثمانية والسلطان محمود لإعادة حكم العراق، خاصة وموت نادر شاه وبعد العراق عن التهديد فيفصلوا البصرة وماردين عن بغداد ويعينوا الموظفين خاصة ان احمد باشا لم يخلف ولدا ويستعرض لونكريك وجود المماليك في قصر احمد باشا واصفا إياهم ذو العيون السوداء والبشرة البيضاء ومنزلتهم وطرق استجلابهم مركز على العنصر القوقاسية ،ثم يستطرد الى حسن باشا والي بغداد وكيف أسس لجلب المماليك والاعتماد عليهم في الأمور العسكرية والإدارية وان شرائهم مقتصر على الباشا وحدة ويتطرق الى تربيتهم وتدريبهم وتدرجهم في الوظائف وحتى تزويجهم وكيف ان الكثير منهم تزوج من المقربين ويستغرب لونكريك من ان المماليك المستجلبين من الخارج يستلمون السلطة في البلد بموافقة اهلها بدون اعتراض ويذكر لونكريك ان بين الكرج الذين اشتراهم حسن باشا وتعهدهم بالتربية مملوك يدعى سليمان اغا[٢].

أتاحت الظروف لسليمان سنة ١٧٤٧م استلام حكم بغداد إيذانا بحكم المماليك ويذكر لونكريك ان السلطان العثماني اصدر فرمان بتعين والي ديار بكر

الصدر الأعظم السابق احمد باشا واليا على بغداد وتعين قيصريه لي احمد على البصرة ومن اجل عدم تخطي سليمان اغا عين ايالة اطنه رحل اليها وعيونه ترنو الى بغداد لكن الفتة التي أقامها الانكشاريون وانتفاضة العشائر بوجه الضرائب وإظهار سليمان باشا القدرة في فض المنازعات أفضت الى تولي منصب في بغداد واستقام به اثنا عشر سنة ولقب ابو ليلة لتخفيه في الليل[٣] .

كما ذكر لونكريك ان حكم سليمان ابوليلة كان من أفضل ايام الترك في العراق حيث كان يقود الحملات التأديبية ضد المتمردين ولا يعود الا ظافرا وانه كان مصبوغا بالمكر والحكمة اضافة الى انه طائش ومجحف في نفس الوقت لكن حكمة كان السيطرة على جميع اطراف العراق ويذكر لونكريك حسن علاقته مع استنبول وتبادل الهدايا وازداد في عهدة استخدام المماليك واستجلابهم من بلاد الكرج الى بغداد[٤].

كانت مدرسة المماليك في بغداد مجهزة بمئة مدرس بمختلف الاختصاصات ويتعلم المملوك القراءة والكتابة والفروسية والسباحة، وأكثر أبو ليلة من استخدامهم في مختلف الوظائف الإدارية وادى الى حرمان اكثر الأسر البغدادية العريقة لوظائفها[٥].

مات سليمان ابوليلة في عام ١٧٦٢م بعد مرض لازمة ستة اشهر ويذكر لونكريك ان موت سليمان فجر شغب عنيف وصراع على السلطة ،وتمثل الصراع علي باشا الكهية واحمد اغا رئيس الانكشاريين وسليم اغا واستلم علي باشا السلطة وكتب الى اسطنبول بترشيح الوالي الجديد لكن احمد اغا استطاع تحشيد أعوانه وبدء بضرب السراي

بالمدافع وأحدث ضجة بين الناس[٦].

حاول علي باشا ارسال المفاوضين لكن الأمر لم ينجح لهذا اتخذ المتاريس قرب مرقد الشيخ ابي نجيب السهراوي وحصلت مناوشات وحصل سلب ونهب وكثر القتل وسفك الدماء ويذكر المترجم جعفر الخياط ان ياسين العمري يذكر خبرا متفردا وهو ان سليمان باشا قد اوصى ان يتولى علي باشا بعده وانه قد اخذ عليهم العهود واليمين بذلك[٧] .

انحاز اكثر الآهلين الى علي باشا الذي حاول انهاء النزاع حيث تنازل للاغا وانسحب من القائمقامية الى بيته وكان الاغا احمد غير مقتنع وفعلا تسلل علي باشا الى الكرخ وحث الاهلين وعشائر علي باشا الذي حول إنهاء النزاع حيث تنازل للاغا وانسحب من القائمقامية الى بيته وكان الاغا احمد غير مقتنع وفعلا تسلل علي باشا الى الكرخ وحث الاهلين وعشائر العقيل وجماعات من الانكشاريين فهجم بهم على الرصافة وتمكن من الاستيلاء على السراي فهرب احمد اغا لكن علب باشا قبض عليه لاحقا وقتله ويشير لونكريك الى استقرار الحكم لعلي باشا وارسال الهدايا والأموال الى اسطنبول وبقاء حكمه خمس سنوات وهي أطول مدة من حكم المماليك عدا حكم داود باشا وان حكمه جاء في وقت عصيان القبائل والفوضى في العراق بينما يشير عباس العزاوي ان إجراءات علي باشا من الحاق الموصل وماردين الى العراق لم تكن ترضي الدولة العثمانية وكانت تريد عزل ولاية بغداد لكن الحرب مع روسيا والنمسا وظهور نابليون صرفها عن تطبيق هذه الفكرة[٨].

كما اشار لونكريك الى حملات علي باشا على العشائر

المتمردة ويتفق مع العزاوي في ان أولى هذه الحركات كانت باتجاه عشائر البلباس الكردية التي أظهرت التمرد والذين ادبهم حسن باشا سابقا حيث جهز حملة كبيرة بقيادة وزيره ابراهيم باشا حيث أذعنوا وقدموا غرامة كبيرة وقاد علي باشا حملة نحو الموصل وقضى على قطاع الطرق في سنجار وطرد اليزيديين من كهوفهم المتحصنين بها ثم توجه فضرب قبائل الجزيرة ومات ابراهيم باشا وخلفه عبد الرحمن وزحف تجاه تلعفر واعدم الشاوي وأخيه متهما إياهم بالخيانة[٩].

واشار لونكريك الى استمرار العصيان والحملات ومنها حملة على بني لام ١٨٠٦م ثم الى ديار ربيعة والمقاصيص يفصل عباس العزاوي حوادث كثيره لم يذكرها لونكريك ،وابرزها قتال الوزير علي باشا للوهابيين ونشاطهم في هذه المدة وشنهم العديد من الغارات على العراق وخروج علي باشا في رمضان ١٢٢٠هـ ونزوله الحلة ثم ترصد اخبار الوهابيين وقتله العديد منهم وغزوة النجف وفشل ابن سعود في تجاوز الخندق الدفاعي فيها [١٠].

اما الشيخ رسول الكركوكلي في كتابة دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد فيذكر حوادث الوهابيين والتي لم يشير اليها لونكريك ومنها فيقول في حوادث ١٢١٦هـ ان عشائر الخزاعل قتلت حوالي ثلاثمائة وهابي واتخذها عبد العزيز ذريعة لإلغاء الصلح ورغم المحاولات من الوالي لقبول الدية الا ان الوهابيين تحركوا نحو العراق واتخذ علي باشا كل الاحتياطات الضرورية وسافر نحو الهندية ثم نحو شتاته والتحقت به قبائل العبيد وفارس الجربا وانسحبت الوهابيين لما علمت بقوة الجيش المقابل [١١].

ومن الحوادث الاخرى التي لم يذكرها لونكريك هي حملة علي باشا على عشائر عفك وجليحه حيث امتنعت هذه العشائر عن تأدية ما بذمتها من أموال وتحرك علي باشا ووصوله نهر اليوسفية واستقبال بعض الشيوخ ودفع ما بذمتهم واستمرار زحفه نحو عفك ولكثرة الاهوار والمقاومة لكنه استمر واجبرهم على دفع نصف ما بذمتهم والتعهد بدفع الباقي[١٢].

ذكر لونكريك مقتل علي باشا ان رجل قوقاسي وصل الى بغداد قبل ثلاث سنوات اخذ يتربص الفرصة لقتله واستغل صلاة علي باشا فانقض عليه وقتله وفروا الى مكان لطلب المؤازرة ولم يحاول احد استغلال الحادث الا نصيف اغا الذي قتل هو اتباعه[١٣].

وصف العزاوي هذه الحادثة بتفصيل ادق حيث يذكر ان الذين قتلوا الوزير ذهبوا الى دار نصيف اغا وراى في نفسه الكفاءة والقدرة فجمع الاعوان ومضى الى دار الحكومة ولكن الناس قالوا لا نريد غير سليمان اغا ابن اخت علي باشا حيث اختاروه طوعا فتفرق اتباع نصيف اغا وقتل مدد بك قاتل علي باشا وأجريت التحريات والقي القبض على نصيف اغا وقتل[١٤].

اشار لونكريك الى تسلم الحكم عمر باشا وان كتابا مدجج بالأكاذيب رفع الى السلطان مصطفى الثالث يسترحمون ولاية عمر باشا والتي استمرت حكومته عشر سنوات يصفها لونكريك بالضعف والانحطاط ويصف لونكريك هذا الوضع"**حلت سنة ١٧٤٤ على عمر باشا وهو مصادف سرايا خاليا وخزانة اكثر خلوا وجيوشا قليلة لا يعتمد عليها واملا خائبا يعلقه على مساعدة السلطان له وجارا**

ايرانيا يلح بالاشتباك الحربي "[١٥].

كما تفرد لونكريك بذكر أوصاف الوزير الجديد حيث يقول((كان سليمان باشا وهو في الثانية والعشرين من عمره مندفعا غير متساهل ولإخال من الطمع ولكنه كان ذا صفحة بيضاء وفكر مستنير ونيات حسنه وتفكير في الامور العامة))[١٦].

واورد لنا لونكريك ان عهده الممتد لثلاث سنوات كان سوية الامن فوق المعدل بوجه عام ورغم مشاكل البصرة الا انها كانت قليلة في عهده وانه قاد حملة الى ماردين وحاول القضاء على الحرب الأهلية في الموصل بسبب الصراع بين الجليين واسعد بك بن الحاج حسين وانتهت الأزمة بعودة الجليلين للحكم [١٧].

اتهم سليمان باشا بالوهابية مع انه كان سلفي الاعتقاد [١٨]،ويذكر علي الوردي انها من تهم الخصوم الذين تضرروا من إصلاحاته في بغداد حيث صاروا يشوهون سمعته ويلصقون تهمة الوهابية وكانت تهمة بغيضة في تلك المدة [١٩].

وكان سليمان باشا قد أشاع العدل والغي مصادرة الأموال وأبطل الرسوم التي يجنيها القضاة من أصحاب الدعاوي، وحدد الإعدام في حدود الشرع فاتهم في اسطنبول ان هذه الإحكام بتأثير علماء بغداد الوهابية [٢٠].

أخذت الدولة العثمانية تترصد الفرص للقضاء على سليمان باشا حيث انه لم يرسل الأموال الى الدولة العثمانية ،وانه بنى له جيشا خاصا وكسب ود أهالي بغداد وقد أدركت ان قوته تعود الى الموصل، لذا تحالف مع حالت أفندي لإسقاطه حيث انضم اليه العديد من الناقمين أمثال عبد الرحمن

بابـــان وعشـــائر ،كطـــي وشمامـــك والعبيـد والعـز ووصـل قـرب بعقوبـة ،حيـث اسـتعد جـيش سـليمان باشـا للمواجهـة وفـي هـذه الإثنـاء حـدث شـغب داخـل بغـداد مـن رجـل مـن الاغـــوات يـــدعى عبـــد الـــرحمن الموصـلي فعـاد سـليمان الى بغـداد وقضـى علـى التمـرد فاسـتغل حالـت أفنـدي وزحـف نحـو بغـداد ودارت في عصـر الخـامس مـن تشـرين الاول ١٨١٠م معركـة كانـت بـوادر النصـر لسـليمان باشـا لكـن جنـوده انقلبـوا عليـه ولم يبقـى معـه سـوى ثلاثـين رجـلا قـاتلوا معـه حـتى النهايـة حيـث قتـــل وســـلخ رأســـه وأرســـله الى اسطنبول عبر الموصل [٢١] .

امـــا لونكريـــك يـــذكر نفـــس الروايـــة لكـــن اختلافـــه ان حالـــت أفنـدي جـاء إليـه وافـدا مـن الدولـة العثمانيـــة طالبـــا بإرســـال الأمـــوال بانتظـــام او التخلـــي عـــن المنصـــب ،ولم يحصـل علـى مـا اراد فانصـرف الى الموصـــل جامعـــا جـــيش قوامـــه خمـس عشـر الـف مـن النـاقمين علـى حكـــم ســـليمان باشـــا الصـــغير وان خـلال المعركـة هـرب سـليمان باشـا باتجـــاه ديـــالى وقتلتـــه قبائـــل شمـــر طوقه[٢٢].

يتفـــق لونكريـــك مـــع اغلـــب المصـــادر ومنهـــا دوحـــة الـــوزراء والعـــزاوي علـــى ان حالـــت افنـــدي عنـــد دخولـــه بغـــداد منتصـــرا كـــان عنـــده فرمانـــا موقعـــا وخاليـــا مـــن الاسـم وانـه خـول ان يضـع مـا يريـد فوقـع الاختيـار علـى رجـل قـدير هـو عبـد الله التوتـونجي لكـن فتنـه نشـبت في بغـــداد؛ بســـبب رفـــض عبـــد الـــرحمن اغـــا الـــذي كـــان معـــارض للـــوالي الســـابق وكـــان يرغـــب بتـــولي سـعيد ابـن سـليمان الكبـير واسـتطاع عبـد الـرحمن جمـع الأعـوان واسـتنجد الـــوالي الجديـــد بعشـــيرة الجبـــور والعقيـــل وهـــزم عبـــد الـــرحمن ولاذ بالفرار[٢٣].

قـــال صـــاحب مطـــالع الســـعود في هذا الصدد:

"ولما تولى عبد الله باشا اعطى عبد الرحمن باشا الكردي من رايه رسنه فوقعت بينه وبين الرئيس فتنه قتل فيها من اهل البلد من سل صارمه فيها وسنه ونجا من وجد للهرب سبيلا واما الرئيس فقد كاد يكون قتيلا فرجع الى مارامه عبد الرحمن الكردي ووزيره اذ ضاق خناقه وذل نصيره فاستقرت الامور لعبد الله باشا" (٢٤).

يتفرد لونكريك بذكر أوصاف عبد الله أغا حيث يصفه انه ذا شخصية شاذة وكان مملوكا اشتراه سليمان الكبير من البصرة وكان مطيع لسيده وتقلد مناصب عديدة وكان المقيم البريطاني في البصرة يساعده في ان يخلف سيده وقد أقصاه علي باشا الى البصرة وأمر سليمان الصغير بإعدامه الا انه فر الى كردستان وبقي فيها الى ان جاء حالت افندي ويستمر لونكريك بذكر بعض صفاته انه كان جلد في العمل وفكر متوقد تؤهله الحديث مع الأوربيين وانه كان حر بالديانة وجذابا للقلوب وكثير السؤال وسمعه حسنه فكثرت الواردات في حكمه وعم الضبط وكان سخيا دون تبذير لكن ذلك لم يفده بالحكم فقد كان إتباع سعيد بن سليمان البالغ ثمان سنوات يقوى (٢٥).

وذكر لونكريك حملات عبد الله اغا على العشائر الثائرة في الشمال في سنة ١٨١٢م لكن ظهور سعيد باشا في المنتفك واستقباله من حمود الثامر وقد اشار المقربون من عبد الله باشا بعدم القيام بأي عمل يجعل المماليك بين اختيار سعيد او الباشا لكن الحرب وقعت حيث سارت القوات في كانون الثاني ١٨١٣ من بغداد الى المنتفك وكان لانشقاق جيش عبد الله وانضمامه لقوات سعيد وحمود اثر في القبض عليه وشنقه(٢٦) .

عند وصول سعيد بك الى الدورة استقبله العلماء والأعيان فدخل بغداد وحين كتب المحضر الى الدولة العثمانية وجهت إليه وزارة بغداد والبصرة وشهرزور [٢٧].

استعرض لونكريك حملات سعيد باشا على العشائر في دجلة والفرات واعادة رئاسة زبيد الى شفلح الشلال ومروره بالخزاعل وإجبارهم على الطاعة وإزالة الحصار القبلي عن كربلاء في موسم الزيارة والحملة على عفك ١٨١٤م وسيطرته دون ان يضرب ضربة واحده وضرب الخزاعل ١٨١٥ وقضاءه على التحالفات العشائرية حيث استنجد شيخ الخزاعل بشمر والزبيد فرد الباشا بطلب المساعدة من المنتفك والضفير [٢٨].

وصف بكنغهام موكب سعيد باشا ودخوله الى بغداد انه موكب مهيب حيث تقدم الخيالة من المماليك وهم يرتدون أجمل الثياب ثم رعيل من المشاة حملة البنادق وطاقيتهم الموحدة إضافة الى البوق والطبول والباشا يحي برشاقة كل من أدى له التحية[٢٩].

اشار لونكريك ان الثورة في بغداد بدأت تتطور وان المشاور لسعيد باشا غير ام مجنونة وصديق لا قيمة له ورجل مضحك وكان داود أفندي الرجل الثاني وكان وزيرا مخلصا وكانت الخصوم تنقل إخبار قتله فتوسعت شقة الخلاف وان الإخبار في العاصمة العثمانية كانت توصف بغداد بتردي أحوالها وعزمت على إحلال داود محله غير ان علي الوردي ينقل هذه الإخبار بوضوح حيث يشير ان نابي خانم ام الوالي سعيد تبغض داود اغا على الرغم من انه زوج ابنتها وحين تعينه منصب الكهية صارت تلوم ابنها على هذا التعين وحين زارها ابنها رفضت ان يقبل يدها وطلبت عزل داود بالحال فاضطر سعيد باشا الى

عزل رجل إدارة مقتدر كداود وتدخلت الام في فرض تعين الحاج عبد الله ظاهري كهية لولدها الذي استقال بعد أربعة اشهر بسبب رفض سعيد باشا نصائحه وأصبح داود باشا زعيم للمعارضة التف حوله اغلب المماليك وغادر في أيلول ١٨١٦م الى كركوك حيث لقي من واليها محمود باشا الترحيب واستطاع ان يحصل في السليمانية على فرمان من السلطان بولاية بغداد وساعده رجل ذو نفوذ وهو حالت افندي[٣٠].

حمل لونكريك سعيد باشا سوء ما وصلت إليه الأمور من سوء التدبير في قضية البابانيين وعدم إعطاء أهمية لتولي السليمانية ويصف لونكريك السيئ الطالع الذي بدء يتخبط بعد فرار زوج أخته واخذ يبدل الموظفين في محاولة لاسترضاء العامة وبعث الرسل الى حمود الثامر فأسرع بالتلبية وقدم عبد الله باشا من كركوك وخالد من كوي إضافة الى جموع العقيل لكن الأسعار ارتفعت حيث لابد من إطعام الجموع في بغداد وحدثت المعركة ١٨١٨م واستطاعت فرسان المنتفك تشتيت جيش داود وهنا يوضح لونكريك الخطاء الذي وقع به سعيد وهو الطلب للقوات المساندة الانصراف ويبدو ان سوء الحالة المعاشية كانت وراء ذلك[٣١].

لكن صاحب دوحة الوزراء يقول ان قدوم قوات المنتفكية بقيادة حمود الثامر جعلت سعيد باشا ينفق الاموال عليهم بدون حساب ودفع لكل فرد اثنا عشر الف قرش مما جعل المماليك ينفرون وينسحبون الى جانب داود باشا وأضحت خزينة الدولة خاوية وكان من جملة الفارين اخو سعيد باشا[٣٢].

لونكريك يشير الى ان صاحب دوحة الوزراء ينكر واقعة الهزيمة امام فرسان المنتفك والقبائل المتحالفة معها وتشتت جيش داود باشا ويشير كتاب دوحة الزوراء ان داود باشا لم يرد حرب اهلية انما انتظر زوال جموع القبائل ثم دخل بغداد ظافرا وقبض على سعيد وقتله وارسل راسه الى استنبول(٣٣).

اما لونكريك فيشير ان داود هزم في المعركة الاولى وان انسحاب قوات العشائر بعد الاطمئنان ساعده ايضا وجود اتباع له في ازقة بغداد الذين بدءوا بالفوضى والسلب والنهب واستمرت معارك خمس ايام مع اتباع سعيد من العقيليين وان داود عند الاقتراب من القلعة ولقربه من سعيد بفضل النسب أعطى الأمان وانسحب من القلعة لكن داود تبعه وحز رأسه وهو في حضن أمه طالبة الرحمة (٣٤).

ان تناقض الرواية بين لونكريك وصاحب دوحة الزوراء حيث ان الأخير لم يرد إظهار داود بمظهر المنتقم قليل ألرحمه وانه ادى ما كلفته به الحكومة العليا.

حكم داود باشا المملوك الاخير

اولى لونكريك اهمية وخصوصية لحكم داود باشا ويشير الى ولادته في تفليس سنة ١٧٦٧م فبيع مرتين واعتنق الإسلام حتى انتهى به الأمر الى دار سليمان الكبير وسرعان ما بانت مواهبه الأدبية إضافة الى استخدام السلاح وكان إداريا ناجحا يجيد العربية والتركية والإيرانية ثم جعل أمينا وحامل الأختام وزوج ابنة سليمان وتولى عدة مناصب منها كهية سعيد باشا وتولى منصب بغداد وهو في الخمسين من عمره وكان بشوشا وكان مظهر الرجل الجميل الملتحي ذي الطول المعتدل الذي تجلله الحشمة والوقار وعلية سمات الذكاء ويستمر لونكريك بذكر بعض السلبيات ومنها الحماقات

في بعض الاحكام وإتباع أسلوب الانتقام من إتباع النظام الذي سبقه ويؤكد لونكريك ان حكمة لم يكن الا استمرار السياسة السابقة وهي إخضاع القبائل وضرب بعضها بالبعض الاخر حيث اخضع قبائل الدليم وشمر الجربا وغرمهم وضرب شمر طوقه وضرب قبيلة اليسار قرب الحلة ويؤكد لونكريك ان قبائل البادية اخذت بشن الغارات على الفرات الأوسط وبفضل القبائل الموالية وانتقلت ساحة الحرب من الحسكة الى عفك ويعتبر لونكريك ان اهم حملة هي عام ١٨١٩م على الدليم مما أتاح الأمن على تلك المناطق وجمع الضرائب [٣٥] .

طابق علي الوردي اخبار الوالي داود لكنه يضيف ان زواج داود من ابنة سليمان باشا اثار حسد علي باشا فلما تولى علي باشا اضطر داود ان يترك الوظيفة ويلجا الى جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني ليكون طالبا للعلم طيلة حكم علي باشا مما اثر في شخصيته وكان ذا طابع خاص تميز عن بقية المماليك[٣٦].

وكان داود باشا على اتصال بأسرته منذ بداية تولي المناصب العالية في بغداد وتوافد اليه احد إخوته اثر تسلمه منصب بغداد واسكنه معه وكان مسيحيا يدعى جيو وغير اسمه الى سليمان دون ان يغير دينه [٣٧] .

في اوائل ١٨١٨م استغل والي كرمنشاه الشاه زاده محمد علي نزاعا بين امراء بابان فوجه ثلاث جيوش يستهدف احتلال بغداد احدهما من السليمانية بقيادة محمد علي اغا والثاني من جهة مندلي بقيادة حسن خان الفيلي والثالث من جهة بدره وجصان بقيادة كلهر علي خان وفي هذا الوقت فر اخو الوالي السابق ودخل عند شفلح الشلال شيخ زبيد وانضم اليه جاسم الشاوي واخذت تشن

الغارات في البصرة فكانت اصعب ايام داود باشا فاستخدم ضرب العشائر بعضها بالبعض الاخر فسلط على شفلح اثنان من خصومه وهما علي البندر وشبيب الدرويش واستطاعا هزيمة شفلح واتباعه والتجأ الى عشائر عفك فهادن الشهاهزادة وعقد بينهم صلح مؤقت[٣٨].

استعرض لونكريك التحرك الايراني بالتفصيل دون ان يربطها بحركة العشائر وتمردها ويفصل لونكريك من سنة ١٧٩١ وبداية حكم فتح علي شاه وكذلك تعين محمد علي ميرزا لكرمنشاه سنة ١٨٠٥ م ويعلل لونكريك ان الانقسام داخل الاسرة البابانية في السليمانية فتح باب الاطماع الايرانية وانقلاب محمود الباباني على داود باشا ومراسلاته مع كرمنشاه ويشير لونكريك ان القوات الايرانية احتلت اجزاء واسعة من الحدود لكن طلب داود باشا قوات عثمانية عجل بانسحابها ويشير لونكريك ان الامور بين الدولة العثمانية والإيرانية تشيران الى الحرب فقد اوى شاه كرمنشاه الناقمين والهاربين من داود باشا وسوء معاملة الأتراك للزوار الإيرانيين وتحرك عباس ميرز ونهب واحرق العديد من القرى في خانقين فاعلم داود السلطان فاجاب الأخير بإعلان الحرب[٣٩] .

حصن داود باشا العاصمة كما طلب المعونة من اسطنبول ووصلت القوات الإيرانية الى هبهب وهي مسيرة يوم واحد من بغداد وهرب قسم من أهالي بغداد الى الحلة وارتفعت الأسعار لكن خزينة داود مليئة بالأموال والذخائر والطعام ورجاله كافين للدفاع ولم يكن يخشى الخيانة وكان مستعدا لحصار طويل ويضيف لونكريك ان تفشي مرض الكوليرا في الجيش الايراني وإصابة الميرزا

عطل وصول الجيش الإيراني لذا ارسل وفد للصلح وكانت بنود الاتفاق ان تعطى السليمانية لعبد الله باشا وعاد الجيش الإيراني ومات القائد الايراني في الطريق وفرجت الأزمة في بغداد وأفنيت الحامية الايرانية في خانقين ويشير لونكريك ان حالة الحرب بقت مستمرة بين الشاه والسلطان حيث عبرت قوات ابن محمد علي الشاه حسين الذي اراد الانتقام لولده الا ان القبائل أحرقت الأرض إمام الجيش الإيراني المتقدم في الخالص وشرهبان اضافة الى هجمات قبائل شمر وتفشى مرض الكوليرا مرة أخرى وانسحبت القوات الإيرانية[٤٠] .

ذكرالعزاوي احداث ووقائع لم يتطرق لها لونكريك ومنها حملات داود باشا سنة ١٨١٨م على عشائر عفك والتجاء شيخ عفك الى قلعة شخير على اسم رئيسها وتحصنهم فيها ووقع معارك عنيفة في ٢٨صفر واستمرار القتال ليومين ثم انسحاب عشائر عفك وسلب الجيش جميع الامتعه والأموال وخربوا القلعة ويستمر العزاوي بنقل إحداث أخرى منها معارك مع جليحه وخضوعها ومحاربة العبيد إضافة الى إعلان عصيان الدليم وتقدم داود باشا اليهم ومحاصرتهم وقتالهم [٤١].

تفرد لونكريك بتخصيص فصل كامل في كتابة موضع البحث اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث وهو الفصل العاشر اطلق عليه نهاية عهد نظرة اخيرة الى عراق المماليك

حيث اشار الى النقاط التالية:

١-ثقافة داود باشا وانه كان متدين بدون تكلف

٢-هيبة الوزير والحاشية والاهتمام بالمراسيم من ملابس الحرس واسلحتهم والبهو ووجود علامات الهلال والنجمة الدالة على الوزارة

وقاعة استقبال الملكية الواسعة وكلها تبهر الزوار

٣-اهتمام داود باشا بالوظائف والموظفين وهم الدفتر دار وسكرتير الديوان ورئيس الحجاب ورئيس التشريفات الخ

٤-اهتمام داود باشا بتعليم المماليك فنون القتال الحديثة من خلال معلمين اجانب

٥-اهتمام داود باشا بالجيش بصورة عامة وتقسيمة الى فئات البرطليون والمشاة والمدفعية

٦-اهتمام داود باشا بتحصيل الضرائب وفق فئاتها منها على البضائع الداخلة ومنها على الشيوخ ومنها على اليهود والنصارى ومنها على المهن

يشير لونكريك ان الامور كانت منظمة في بغداد بينما الفوضى في ارجاء العراق ويستطرد هكذا كان عراق العشر الثالثة من القرن التاسع عشر كان حاكمه وبذخ ديوانه وسوء الحكم خارج العاصمة وان الامور لابد من زوال الوضع الشاذ [٤٢].

علاقة داود باشا بالمستر ريج والتدخل الأجنبي

استعرض لونكريك تزايد اهتمام البعثات التبشيرية بالعراق وشركة الهند الشرقية واهمية البصرة ثم يستعرض اهم شخصية وهو ريج البريطاني وعلاقته بالوزراء والحكام ومنهم داود باشا ويصف لونكريك هذه العلاقة بين شخصية انكليزية عنيفة نزيهة كثيرة الشك والريبة وبين طاغية شرقي احاط به مشاورون متعصبون وكان الانكليزي يوجه لهم اللوم على عرقلة المصالح الأوربية والتجارة والتلاعب بالعملة [٤٣].

كان ضعف الدولة العثمانية في تلك الفترة والتدخل الاجنبي وخاصة البريطاني من اهم العوامل التي ادت الى تعين كلوديوس جيمس ريج ليكون الرجل الثاني في العراق من خلال علاقاته لتفتح

لـه ابـواب التجـارة والتغلغـل وأحـس داود باشـا بتحركاتـه المشـبوهة علـى مسـتقبل العـراق السياسـي واتهـم انـه مثـير للفـتن والقلاقـل فـاجبره علـى مغادرة العراق نهائيا [٤٤].

لكـن ظـروف العلاقـات المتـوترة والأطمـاع الإيرانيـة وتمـردات العشـائر وإيقـاف البريطـانيين التجـارة مـع الهنـد كلهـا ضـغوط أدت بـداود باشـا الى عقـد اتفاقيـة بتـاريخ ٥ أيلـول ١٨٢٣م والـتي ألزمـت داود باشـا بالامتيـازات السـابقة وضـمنت عـدم التعـرض لمصـالح بريطانيـا وكـان الغـرض تقيـد سـلطة الـوالي وضـمان سـلامة النقـل لتجـارة الهنـد وضـمان المصالح البريطانية[٤٥].

في هـذا الفصـل نجـد لونكريـك خـرج مـن الاعتـدال الى الانحيـاز التـام للمصـالح البريطانيـة فيعلـق علـى قـول داود باشـا سـنة ١٨٢٠م بانـه لا توجـد حقـوق أوربيـة في بغـداد حيـث يعلـق ان هـذا القـول لا يقبلـه العقـل وهـو مخـالف للمنطـق والتـاريخ ومخـالف لأوامـر السـلطان حيـث ضـاعف داود باشـا الرسـوم الكمركيـة علـى البضـائع الأجنبيـة ويعلـق لونكريـك ان النظـرة البريطانيـة الدبلوماسـية البريطانيـة هـي حديثـة لكنهـا ليسـت في محلهـا في عـراق المماليـك وان حكومـة السـلالة الـتي أسسـها حسـن باشـا في ١٧٠٤ هـي منحطـة معنويـا لا ماديـا في عصـر داود باشـا وكانـت خطئـا تاريخيـا تـدان عليـه ويقـول لونكريـك انـه لم يكـن بوسـع امـم أوروبـا طـوال قـرنين ان تقـيم صـرح تجارتهـا ومركـز اجتماعيـا او ودبلوماسـيا وتقـوض بكلمـات هوائية من حكومة بغداد المرتشية

نلاحـظ ان لونكريـك يشـن هجومـا عنيفـا علـى حكـم المماليـك وانهـم عقبـة بوجـه التقـدم والنهضـة والحضـارة الـواردة الـيهم مـن أوروبـا عامـة ومـن بريطانيـا خاصـة وانهـم لم يـدركوا التغـيرات في العاصـمة اسـتنبول وهـزائم الدولـة العثمانيـة والإصـلاحات وتبـني الـنهج الأوربي والمستشـارين البريطـانيين والقضـاء

على الانكشاريين ويستطرد لونكريك ان حكام العراق المماليك كانوا لم يستخبروا بشيء من هذه التبدلات المحدثة في الإمبراطورية .

مما تقدم نرى تغير أسلوب لونكريك ومحاولة إظهار تخلف المماليك وانهم ضد رغبات الدولة العثمانية في التقدم والانفتاح على أوروبا وعدم التخلص من الجيش الانكشاري والاحتفاظ بالمماليك ومنفصلا عن سيده في اسطنبول ويعللها لونكريك انها أسباب عجلت بسقوطه ،لكن علي الوردي يقول ان الخطأ التاريخي الذي قام به داود باشا هو قتل المبعوث العثماني الذي ارسله السلطان محمود وهو صادق افندي والذي كلفه بالتخلص باي وسيلة من داود باشا واسكن المبعوث في دار الضيافة واحس داود باشا ان الغاية التخلص منه فجمع مستشاروه الذين اشاروا عليه بقتله وفي ٢٠ تشرين الثاني ١٨٣٠ احاط جنود بقيادة محمد افندي ورغم توسلات المبعوث الا انهم قتلوه[٤٦] .

كان لمقتل المبعوث صدى واسع في اسطنبول حتى ان محمد علي العاصي على الدولة العثمانية حاول استغلال الموقف لجسامته واعلن استعداده للذهاب الى بغداد وإلقاء القبض على داود باشا لكن السلطان فوت عليه الفرصة وامر علي رضا باشا والي حلب بقيادة حملة على داود باشا[٤٧].

وعلق لونكريك ان هذه الحادثة الخسيسة أضيفت الى الأسباب السابقة الداعية الى القضاء على انشقاق المماليك عن إمبراطورية السلطان ويتفرد لونكريك بذكر المداولات على حكم بغداد وكيف انه عرض حكم بغداد في البداية على علي يوسف باشا وهو رجل مجازف من الروم ايلي لكن طلبه للمال والجند ادى الى تغيره الى الحاج محمد علي رضا باشا وهو

من اللاظ الذين يمتون للجراكسة ويسكنون البحر الاسود وحشد قواته في حلب في كانون الثاني ١٨٣١م وكان يراسل المماليك المنشقين والعشائر ويرسل الأموال لكن تفشي الطاعون في بغداد أوقف العملية[٤٨].

بلغ الطاعون أشده في نيسان حيث أصبح عدد الأموات في اليوم ما يقارب مائة وخمسين وحاول داود باشا الهرب لكن ثقل أموالهم منعهم من ذلك واختل النظام وانتشر اللصوص وانتشرت انباء تقدم الجيش العثماني ثم ارتفع عدد الأموات الى إلف وأكثر في اليوم الواحد ولم يجد الوالي داود من يطيعه فتفرقت العسكر والموظفين وزاد مناسيب نهر دجلة ودخلت الى البيوت والازقة وفي الاسبوع الاول من مايس قل الفيضان والطاعون وبقت الجثث في شوارع بغداد مدة شهر كامل حتى دفن قسم منها والقي قسم منها في النهر ولم يبق للوالي الا العشرات القلة من خدمه وقصره مخرب وكان رضا باشا في الموصل وارسل طلائع جيشة بقيادة قاسم باشا ومعه صفوق رئيس شمر وسليمان الغانم من العقيل وارسل الى علماء بغداد واعيانها يحثهم على طاعة الوالي الجديد وطرد داود باشا وكان داود باشا قرر التسليم بعد المرض الذي اصابه ولم يبقى معه غير نفر قليل من خدمه وخرجت مظاهرات من محلة باب الشيخ تطالب بعزله اطلق عليها الحراس طلقات فتفرقت[٤٩].

وجاء وفد من بغداد من الاعيان والعلماء الى داود واخرجوه من داره بكل احترام واودعوه بدار صالح بن سليمان الكبير لحين تسليمه للوالي الجديد حدث تحول في مجرى الاحداث فبينما كان قاسم باشا في السراي ينتظر تسليم داود باشا اذ سمع ضجة اذ تبين ان جماهير تحيط بالسراي تريد مهاجمته واعداد كبيرة من عشيرة العقيل ومماليك واستحوذوا على

مخازن السلاح وحاصروا قاسم الذي بادر الى نهب الخزينة وحرق السراي واستسلم قاسم بينما يذكر علي الوردي ان قاسم باشا بعد حرق السراي انهالت الجماهير الغاضبة ونهبت اموال السراي والنفائس الذي احتفظ بها داود باشا وان قاسم باشا وجد مقتولا في بئر [٥٠].

ان سكان بغداد أصبحوا متحدين بعد مقتل قاسم وكتب الأعيان الى السلطان ان يسندوا ولاية بغداد الى داود باشا او صالح بك ويدفعوا مبلغ كبير وزيادة الجزية السنوية اما علي باشا واصل الزحف نحو بغداد فوصلها في تموز وحاصر المدينة وجرت جولات من القتال اثبت ان هناك مدافعين عن المدينة وكان القتال في بغداد على نوعين الأول نظامي تحت قيادة داود باشا والمماليك والثاني الأهالي بلا هدف واستمر الحصار الى أيلول وشح الطعام وبتعاون مع الاهالي دخل جيش علي رضا المدينة دون قتال واستسلم داود باشا وعومل بكل احترام وأرسل الى اسطنبول لكن علي رضا قام بمذبحة عامة للمماليك اينما وجدوا بينما عفي عن داود باشا ويذكر لونكريك ان سبب العفو عنه توصيات علي رضا او بسبب مزاياه العجيبة وشخصيته وتضلعه بالقانون والشريعة حيث ارسل مع عائلته منفيا الى بروسة ثم صار واليا على بلاد البوسنة ثم رئيسا لمجلس الدولة في اسطنبول وفي ١٨٣٩م عين لولاية انقره ثم طرد واعاد الى منفاه في بروسة لكن السلطان عبد المجيد نصبة بمنصب حامي العتبة المقدسة في المدينة توفي ١٨٥١م[٥١].

وذكر لونكريك ان مذبحة المماليك لم تستثني احد منهم حتى الذين كانوا مع جيش علي رضا قتلوا سرا ويختم لونكريك ان عهدا جديد بعد نفي داود باشا ودفن كل المماليك والخدم وهو عودة العراق الى احضان تركيا الحديثة.

ثالثا: منهـــــج لونكريك

ذكـر لونكريـك في مقدمـة كتابـة عـن صـعوبة المصـادر ولـو انـه وجـد مصـادر حديثـة لمـا أقحـم نفسـه في هـذا الميـدان وانـه لم يكتـب في اللغـة الانكليزيـة في هـذا الميـدان ولا يوجـد مطبوعـات باللغـات الأخـرى ولا بـين الكتـب المخطوطـة مـا يمكنهـا ان تسـد الـنقص الموجـود الا ان مركـز العـراق التـاريخي في العصـور القديمـة والعباسـية يجعـل منـه مهـم لدراسـة خاصـة التقلبـات والغـزوات مـن المغـول وهجمـاتهم المـدمرة بقيـادة هولاكـو ومـا جـرى مـن الفقـر والـدمار والفوضـى يـذكر لونكريـك ان العـراق منـذ ايـام سـليمان القـانوني ضـمت العديـد مـن الشخصـيات الـتي حرمـت مـن ان تأخـذ مكانهـا بالتـدوين التـاريخي ويـذكر لونكريـك انـه واجـه العديـد مـن الصـعوبات في أحـوال يكتنفهـا الغمـوض ويحـيط بهـا طقـس قـاس وان الاقامـه في العـراق قـد سـاعدته كثـيرا لمعرفـة احـوال العـراق ولغاتهـا والوضـع الطـوبغرافي وانـه سـيرحب بالفرصـة الـتي يظهـر بهـا كاتـب او مؤرخ ابرع من يده ليحل محل كتابة هذا.

واشـار لونكريـك انـه مـن الضـروري توجيـه الشـكر لمـن سـاعده في الكتابـة ومـنهم حمـدي بـك بابـان و يعقـوب سـركيس ومحمـود الشـاوي و حسـن بـك مـن الحلـة والحـاج عـذار مـن البصـرة وداود الحيـدري والشـيخ احمـد بـاش خـان وحميـد خـان مـن النجـف وعبـد المجيـد اليعقـوبي مـن كركـوك ممـا يشـير الى العلاقـات الواسـعة الـتي كـان يتمتـع بهـا الكاتـب[٥٢] لقـد ظهـرت الطبعـة الأولى مـن هـذا الكتـاب باللغـة الإنكليزيـة عـام ١٩٢٥، ولقـد غطـى فـترة كبـيرة مـن تـاريخ العراق لا سيما الفترة المظلمة التي مـرت عليـه والـتي امتـدت مـن (١٥٠٠- ١٩٠٠م) وبهـذا أصـبح هـذا الكتـاب حلقـة جديـدة ومهمـة أرخـت لهـذه الفـترة الـتي تعـد سـجلاً

حافلاً بالحوادث المروعة التي وقعت في العراق خلال عدة قرون.

جاء في مقدمة المترجم :"فقد تقاتل على الاستحواذ على هذا البلد منذ القدم الإيرانيون والرومان والأتراك وتناحر عليه فيما بعد الإيرانيون والأتراك العثمانيون عدة قرون ، ثم طمعت فيه في العهد الأخير الأمم الغربية المختلفة، مما لا يخفى أمره على أحد، وعلى الرغم من أن المؤلف يبدو للعيان رجلاً محايداً ونزيهاً فإنه في كثير من الأحيان يخرج عن هذا المسار الذي اختطه لنفسه فيحاول خلط الأوراق تبريراً لأسباب الاحتلال البريطاني للعراق وعلاقات بريطانيا بالعراق والمنطقة العربية ، وكذا الحال مع الدولة العثمانية وإيران... فيما يتعلق بالصراع من أجل الاستحواذ على المنطقة ونهب خيراتها وثرواتها ".

الكتاب مقسم إلى اثني عشر فصلاً، ففي الفصل الأول منه تناول جذور المجتمع العراقي وبنيته وتكوينه السكاني في ماضيه القريب وكذلك بدايات الاحتلال الإيراني والتهديد التركي للعراق ، إضافة إلى سيرة السلطان(سليم) وحياته.

وفي الفصل الثاني تناول فترة القرن السادس عشر و بين آمال العراقيين ومخاوفهم في زمن الحكم التركي للعراق، إضافة إلى أهم الأحداث الداخلية التي عصفت بالعراق للفترة من (١٥٣٤م) إلى (١٦٢٠م) وكذلك الظروف والأحداث التي طرأت على قبائل ومدن العراق وقصباته في أطراف العراق، مع بيان وضع الحكومة في تلك الفترة.

أما فصله الثالث فقد تناول فيه المؤلف قصة حياة بكر صوباشي وفترة الاحتلال الإيراني الثاني للعراق إضافة إلى قصة (حافظ أحمد) والسلطان(مراد) عام ١٦٣٨ وما جرى في ذلك العام من أحداث.

أما فصله الرابع فقد تناول فيه فترة القرن السابع عشر، الذي شمل خصائص التاريخ العراقي من (١٦٣٩م-١٧٠٤م) ، وخارطة توزيع القبائل العربية التي سكنت

العراق في القرن السابع عشر مع تاريخ بغداد وحكامها للفترة ذاتها، مع تناول تاريخ المنطقة الشمالية من العراق رجالاً ودويلات وطبيعة اجتماعية.

أما فصله الخامس فقد ركز فيه على أمير البصرة وأسرة (أفراسياب) وتاريخ الخليج العربي للفترة من (١٦٢٢-١٧٠٠م) وما فيه من أحداث ، وكذلك ركز على أهم الأحداث التي كانت وراء سقوط أسرة (أفراسياب) وعاقبة(حسين باشا) وما رافق ذلك الجيل من تقلبات ومحن.

وفي الفصل السادس ركز المؤلف على العمالقة البارزين من المتصارعين للسيطرة على حكم بغداد(حسن باش) ا، والحملات العثمانية، وحصار بغداد على يد (نادر قلي) و (المنقذ الأعرج) ونهاية الصراع بين العثمانيين والفرس للاستحواذ على العراق ، إضافة إلى تاريخ مفصل للعراق وللحروب التي جرت فيه للفترة من (١٧٢٢-١٧٤٧م).

في فصله السابع تناول المماليك و(أبو ليلة) و(علي) و (عمر) وما تعنيه عبارة (باباني وإيراني).

في فصله الثامن تناول سيرة (سليمان) الكبير وحصار البصرة واحتلالها وتبوء (الباشا الكبير) ، كما أرخ لأهم أحداث القبائل والأتباع للفترة من (١٧٨٠م-١٨٠٢م) مع تأريخ نشوء (الوهابيين) إضافة إلى كيفية نهاية(الباشا الكبير).

في الفصل التاسع تناول سيرة المماليك الأواخر الذين حكموا بغداد وأحداث الوهابيين للفترة من (١٨٠٢-١٨١٠م) وما جرى من أحداث في شهرزور من (١٨٠٢ إلى ١٨١٣م) وسيرة (سعيد باشا) وآخر المماليك وما تبع ذلك من غزوات من (كرمن شاه).

في الفصل العاشر من الكتاب ركز المؤلف على نهاية عهد المماليك وحالة العراق فيه وكذلك احتلال بغداد ومجيء (علي رضا).

في فصله الحادي عشر ألقى الضوء على الفترة التي سبقت

(مدحت باشا) وكذلك على علاقات الدولة العثمانية مع الدول الأجنبية وبدايات نشوء ظاهرة الإصلاح وعلى أهم الشخصيات التي ظهرت في تلك الحقبة وكيفية عودة الحكم المباشر الذي فرض على القبائل والعشائر العربية التي كانت تتمتع باستقلال شبه ذاتي والسياسة التي اتبعتها الحكومة مع العشائر للفترة من(١٨٣٨-١٨٦٩).

أما في فصله الثاني عشر فقد تناول أواخر القرن التاسع عشر، وكذا (مدحت باشا) والتوسع العثماني والمصري في الجزيرة العربية، وحكومة العراق في نهاية ذلك القرن.

إضافة إلى احتوائه على قائمة بأهم مراجع الكتاب ونسب بعض الأسر وملوك تركيا وإيران وتوضيح للأسماء والمصطلحات الأعجمية، إضافة إلى فهرست الأعلام الذين وردت أسماؤهم في الكتاب وضم الكتاب في ترجمته العربية بين دفتيه أكثر من ٤٥٠ صفحة من الحجم المتوسط.

كانت معرفة عقلية العراقي وسلوكية رجال الدين ودور النزاعات القبلية والطائفية مدخلاً واسعاً للسيطرة على العراق أرضاً وأفراداً ومعتقداً.

لقد طرح الكتاب عدة حقائق منها : " **فقد كانت البلاد على عظمة ماضيها، وعلى ما فيها من ثروة دفينة ما تزال تنتظر العلم والحكم المستنير لاستثمارها فقد تقادم فيها عهد الخراب الذي سببه الجور المبيد فأصبحت قفراً موحشاً تسود فيها الفوضى من القلعة الصخرية في ماردين حتى شط العرب**" ، وشكل هذا الطرح مدخلاً لدراسة تأريخ العراق في هذه الفترة التي امتلأت بالصراعات الشخصية والقبلية وكذلك بالصراع بين مختلف الأطراف للسيطرة على العراق سواء كانت فارسية أو عثمانية أو مصرية أو وهابية، ولا يخفى على بال القارئ اللبيب أن المؤلف مع

إجلالنا الكبير له ولجهوده العلمية كان كتابه ضوء ساطعاً لمعرفة تأريخ العراق وبنية تكوينه الاجتماعي والديني والقبلي وما رافق ذلك من وشائج ومنفرات وكذلك مرتكزات الفكر الديني لدى الفرد العراقي، كان الكاتب ذو نظره محايدة لأكثر الإحداث إضافة إلى النقل الدقيق للمعلومات واستخدم التتابع الزمني للإحداث إضافة الى وجود الخرائط التي كانت من رسم الكاتب لمسار الجيوش كما في خارطة حصار البصرة عام ١٧٧٥م بعد تقسيم الفصول كان هناك عناوين ثانوية للمواضيع حسب التسلسل الزمني (علي وعمر-باباني وايراني-الانسان ذئب يفترس اخاه-الخ) ويلاحظ الفراسة الادبية والمجازات التي كان يتميز بها الكاتب وعلى سبيل المثال يورد لونكريك:

"ان تاريخ العراق الداخلي في هذه السنين كان يتضمن امورا اكثر اهمية من هذه الحوادث ومئات مما يشابها من حوادث العصيان والتأديب فقد ثبت في الجنوب امة أوربية جذور علاقاتها التجارية الى أمد طويل ونشأت في كردستان سلالة بين الأودية فأصبحت قوية منيعة واستطاعت أسرة واحدة في الموصل ان تبرز عن غيرها من الأسر فتمسك الباشاوية بيدها ملكا لها مدة قرن واحد".

ملاحق الكتاب تحوي على الباب الاول مراجع الكتاب وبها تعريف كامل لكل المراجع المهمة مثل دوحة الزوراء وغرائب الاثر ويذكر كتاب الرحالة بالتفصيل اما الباب الثاني خرائط تمثل انساب عائلة حسن باشا – اسرة الجليليين-اسرة البابانيين-السعدونيين والملحق الثالث ملوك ايران وما يقابله من سلاطين تركيا ويعلق الدكتور عماد عبد السلام رؤوف على الكتاب "ان الكتاب اثبت انه قادر على ان لا يخلي موقعة العلمي امام الدراسات

التاريخية في موضوعة واحد مميزات هذا الكتاب ان مؤلفه اعتمد على مجموعة ضخمة ومهمة من المصادر التاريخية والجغرافية والوثائقية مما يعسر على اكثر الباحثين جلدا وصبرا من الوصول اليها "

الخاتمة

مثل لونكريك رغم كونه بريطاني من ضباط الحملة العسكرية على العراق عام ١٩١٤ من المؤرخين الذين كان لهم السبق بالكتابة عن بواكير التاريخ العراق الحديث في فترة اتسمت بقلة المصادر التاريخية وندرتها ،ومن هنا قيمة هذه الكتابة بالرغم من تقادم الزمن ما زلت هذه الكتابة محافظه على مصداقيتها واعتدالها ومن خلال الكتابة عن تاريخ المماليك توضحت الصورة عن تاريخ المماليك حيث اتسمت هذه المدة بالصراعات الداخلية والخارجية الداخلية كانت العشائر العراقية سواء العربية او الكردية والتنازع فيما بينها ،او مع سلطة المماليك والكثير من حركاتها مثلت انتفاضة على الجور والضرائب لكن الضوء لم يسلط وانما اعتاد كل الكتاب ومنهم لونكريك لطوي هذه الصفحة بالقول (تمرد) وتمثلت التحديات الخارجية بالحملات الفارسية للاحتلال العراق وهنا يسجل للمماليك انهم رغم غرابتهم عن البلد لم يسلموا شبرا واحد للمحتل ودافعوا ببسالة عن العراق وهذا ما اوضحه الكاتب جليا ولا يخلوا عهد المماليك من البناء والاعمار حيث كان لبعضهم بصمات واضحة ومهمة مثل حسن باشا –وسليمان الكبير – وداود باشا ولم يغفل لونكريك عن حدث تاريخي مهم في تلك المدة ،الا وكان له تعليق وكلام لقد اجاد المؤلف في الكتابة عن تاريخ بلد الحضارات العراق وعن مده زمنية لم تغنى بصورة جيده من المصادر لذا يعد هذا الكتاب من المصادر المهمة والمتميزة في تاريخ العراق الحديث .

المصادر والهوامش

١- احمد باشا بن حسن باشا وهو احمد بن حسن بن مصطفى ولد ١٦٨٥م في قرية جفلكة وهي احدى القرى التابعة الى استنبول وتدرج بالعديد من الوظائف الادارية منها حاكم شهرزور ١٧١٥م ثم حاكم قونية في نفس السنة وحاكم حلب في ١٧١٦م وحاكم البصرة ١٧١٨ واستلم حكم العراق بعد وفاة ابيه ١٧٢٤م-١٧٤٧ وتميز حكمة بالحملات على بلاد فارس وتأديب العشائر المتمردة والاكثار من جلب المماليك والاعتماد عليهم وتزويج ابنته عادلة خاتون الى احد المماليك سليمان باشا للمزيد ينظر :عباس العزاوي ،تاريخ العراق بين احتلاليين ،الجزء الخامس، الدار العربية للموسوعات،ص١٥٥

٢- سليمان اغا احد المماليك الذين اشتراهم حسن باشا ووصف بالطاعة والشجاعة وحسن التدبير واصبح من مقربين احمد باشا وتذكر بعض الروايات ان اسدا هاجم احمد باشا في احد رحلات الصيد وان الجميع هربوا وان سليمان اغا تصدى له وقتلة وهذه القصة لم تثبت لكن الواضح ان هذا المملوك وصل الى رتبة مقربة من الوزير احمد باشا حتى انه زوجه ابنته عادلة خاتون للمزيد ينظر:احمد علي الصوفي ،المماليك في العراق، الاتحاد ،الموصل، ١٩٥٢ ص٣٢.

٣- للمزيد ينظر علي الوردي ،لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ،ج١،مطبعة الارشاد ،بغداد،١٩٦٩،ص ١٥٣.

٤-ستيفن همسيلي لونكريك ،اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث،ترجمة جعفر الخياط، بيروت، ٢٠٠٤ ، ص٢٠٥.

٥- المصدر نفسه، كذلك ينظر: عباس العزاوي ج٦،المصدر السابق، ص١٥٩

٦-للمزيد ينظرالمصدرنفسه، ص١٧٧

٧-لونكريك، المصدر السابق، ص٢٦٦

٨- عباس العزاوي، المصدر السابق، ص١٧٩

٩- لونكريك ،المصدر السابق، ص٢٦٩

١٠-عباس العزاوي، المصدر السابق، ص٢٠٠

١١-رسول الكركوكلي، دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد ،نقله للعربية موسى كاظم نورس ،دار الكاتب العربي بيروت بدون تاريخ،ص٢١٥

١٢- الشيخ رسول الكركوكلي، المصدر السابق،ص٢١٥

١٣- لونكريك، المصدر السابق، ص٢٧١

١٤- عباس العزاوي، المصدر السابق، ص٢١٠

١٥- لونكريك ،المصدر السابق، ص٢١٧، للمزيد ينظر الشيخ عثمان بن سند البصري، خمس وخمسون عاما من تاريخ العراق ،المطبعة السلفية، القاهرة، ١٩٧١،ص٢٥

١٦- لونكريك، المصدر السابق، ص٢٧١

١٧-المصدر نفسه

١٨- سليمان فائق ،تاريخ بغداد، ترجمة موسى كاظم ، بغداد، ١٩٦٢، ص٣٧

١٩-علي الوردي، المصدر السابق، ج١، ص٢١٠

٢٠-ساطع الحصري ،البلاد العربية والدولة العثمانية، بيروت،١٩٦٠،ص٥٨

٢١- علي الوردي، المصدر السابق،ص٢١٤

٢٢- لونكريك ،المصدر السابق،٢٧٢

٢٣-علي الوردي، المصدر السابق، ص٢١٤

٢٤- مطالع السعود ص١٩٤ نقلا عن العزاوي، المصدر السابق، ص٢٣٩

٢٥-لونكريك ،المصدر السابق،ص٢٧٤ للمزيد ينظر؛ سليمان فائق بك، تاريخ المماليك الكوله مند في بغداد، ترجمة محمد نجيب ارمنازي، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦١،ص٢٨

٢٦- لونكريك ،المصدر السابق، ص٢٧٤

٢٧-العزاوي،المصدر السابق، ص٢٤٨

٢٨- لونكريك،المصدر السابق، ص٢٨٣

٢٩-جيمس بكنغهام ،رحلتي الى العراق،ترجمة سليم طه التكريتي، بغداد، ١٩٦٨،ص١٨٣

٣٠-علي الوردي،المصدر السابق، ص٢٢٤

٣١-لونكريك،المصدر السابق، ص٢٨٤

٣٢- رسول الكركوكلي، المصدر السابق،ص٢٧١

٣٣- المصدر نفسه

٣٤-لونكريك،المصدر السابق،ص٢٨٦،يتفرد سليمان فائق بذكر تفاصيل قتله ودخولهم والحوار الذي جرى للمزيد ينظر سليمان فائق ،المصدر السابق،ص٤٩

٣٥- لونكريك، المصدر السابق،ص٢٩١

٣٦-علي الوردي،المصدر السابق،ص٢٣١

٣٧- يعقوب سركيس ،مباحث عراقية ،بغداد،١٩٤٨،القسم الاول، ص٢٩٥

٣٨-علي الوردي،المصدر السابق، ص٢٣٧

٣٩ -لونكريك،المصدر السابق، ص٢٩٣

٤٠- المصدرنفسه،ص٢٩٦

٤١-العزاوي،المصدر السابق، ص٣٠٠

٤٢- لونكريك،المصدر السابق،ص٣٠٦

٤٣- المصدر نفسه

٤٤- عبد العظيم عباس نصار، بلديات العراق في العهد العثماني،النجف،٢٠٠٥،ص٨١

٤٥- المصدر نفسة،ص٨٢

٤٦- جميس بيلي فريزر،رحلة فريزر ،ترجمة جعفر الخياط ،بغداد١٩٦٤،ص١١٩، كذلك ينظر سليمان فائق ،تاريخ المماليك في العراق ،ترجمة محمد نجيب ،بغداد،١٩٦١،ص٥٨

٤٧-للمزيد ينظر عباس العزاوي،المصدر السابق،ص٣٥٠ كذلك ينظر علي الوردي ،المصدر السابق،ص٢٦٨ كذلك ينظرعبد العزيز سليمان نوار مصر والعراق،القاهرة ١٩٦٨،ص١٣٥

٤٨- للمزيد ينظر :احمد علي الصوفي،المصدر السابق،ص٢٠٢

٤٩-للمزيد ينظر :سليمان فائق،تاريخ بغداد،ترجمة موسى كاظم نورس،بغداد،١٩٦٢،ص٨٢

٥٠-للمزيد ينظر علي الوردي ،المصدر السابق،ص٢٧٨

٥١-تفرد لونكريك بذكر تفاصيل نهاية داود باشا

٥٢-لونكريك ،المصدر السابق، ص٥

المصادر

١-عباس العزاوي ،تاريخ العراق بين احتلاليين ،الجزء الخامس،الدار العربية للموسوعات.

٢-سليمان فائق،تاريخ بغداد،ترجمة موسى كاظم نورس،بغداد،١٩٦٢.

٣-عبد العزيز سليمان نوار مصر والعراق،القاهرة ١٩٦٨.

٤-سليمان فائق ،تاريخ المماليك في العراق ،ترجمة محمد نجيب ، بغداد،١٩٦١.

٥-جميس بيلي فريزر،رحلة فريزر ،ترجمة جعفر الخياط ،بغداد١٩٦٤.

٦-سليمان فائق بك، تاريخ المماليك الكوله منذ في بغداد، ترجمة محمد نجيب ارمنازي، مطبعة المعارف، بغداد،١٩٦١.

٧-عبد العظيم عباس نصار، بلديات العراق في العهد العثماني،النجف،٢٠٠٥.

٨-جيمس بكنغهام ،رحلتي الى العراق، ترجمة سليم طه التكريتي،بغداد،١٩٦٨.

٩-ساطع الحصري ،البلاد العربية والدولة العثمانية،بيروت،١٩٦٠.

١٠-سليمان فائق ،تاريخ بغداد،ترجمة موسى كاظم ،بغداد،١٩٦٢.

١١-عثمان بن سند البصري، خمس وخمسون عاما من تاريخ العراق ،المطبعة السلفية ،القاهرة ،١٩٧١.

١٢-رسول الكركوكلي، دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد ،نقله للعربية موسى كاظم نورس ،دار الكاتب العربي بيروت بدون تاريخ.

١٣-ستيفن همسيلي لونكريك ،اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر الخياط،بيروت،٢٠٠٤ .

١٤-احمد علي الصوفي ،المماليك في العراق، الاتحاد ،الموصل،١٩٥٢.

١٥-علي الوردي ،لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ،ج١،مطبعة الارشاد ،بغداد،١٩٦٩.

١٦-يعقوب سركيس ،مباحث عراقية ج٢،بغداد ، ١٩٤٨.